منصَّة Rê الثقافيَّة

قصص قصيرة

دوائر القلق

عبد الرحيم التدلاوي

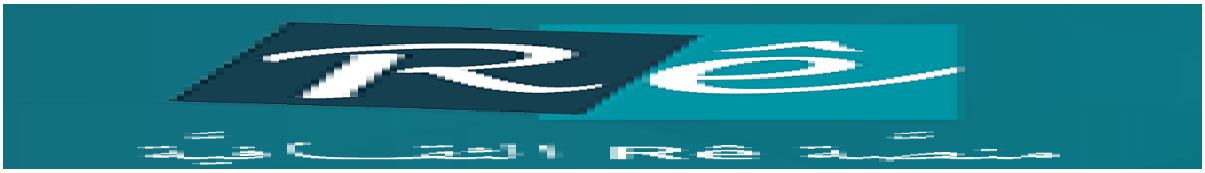

لولو

كدت أصرخ فرحاً: وجدتها، وأنا أتجول في المدينة القديمة، أتنفس عبقها التاريخي، حين داهمني غناء طروب. شعرت بتخفف من حمل ثقيل صاحبني منذ صغري كاد يفل قدراتي.

كنا، ونحن صغار، ننجذب إلى محلّ خياط حومتنا بمجرد مداعبة أنامله لأوتار عوده، كما لو أنه يداعب أوتار قلوبنا جميعاً، كنا ننجذب بقوة روعة ما يصدر عن آلته العجيبة، كما تنجذب الفراشات للضوء، لكن صديقه الشرطي كان يفرقنا كما لو كنا نحمل فيروسات قاتلة يخاف على نفسه منها؛ وهو المهزول ضعيف البنية، ذو الوجه المستطيل، والعينين الضيقتين اللتين تجولان في محجريهما بحثاً عن ضحية. نبتعد نفوراً من صوته الأجشّ، مكرهين وكارهين، وقد شفى قلوبنا يوم علمنا أن إدارته يوم دخلته قد طلبته للخدمة، نازعةً إياه من دفء الفراش، وما كاد ينعم به.

أما صاحب المحل فكان رجلا طيباً، لم يغضب أبداً من مناداته ب"لولو"، اسم غريب لم أستسغه، ولم أعرف له معنى، ظل يقرع سمعي زمنا طويلاً، كاد يصيبني بحيرة مدوخة. كان يبتسم للمنادي بوجه بشوش رغم سمرته بل بفعل سمرته الصافية واللامعة وكأنها دُهنت زيتاً. كان يتميز بجسمه الضخم، وقدّه الرياضي، وسمرته المحببة، لم يكن شعره أجعد بالمرة، بل كان متموجاً، ما فارقته الابتسامة أبداً، أنيقاً. كان ودوداً، والكل يحبّ طيبته، أما صوته فرائع؛ لكنه كان يخجل من لونه، كما لو أنه عارٍ يستوجب التخلص منه، وكان يحب أن يصير ذا سحنة بيضاء لدرجة سكنت وجدانه وعقله، ولم تبارحه أبداً، هذا ما كان يسرُّ به لقربيه، ومنهم الشرطي وأخوه، والحق أنها دائرة صغيرة، لكن خبث الشرطي كان مضمراً؛ فقد كانا، هو وأخوه، يسخران منه، وكان يصدق أي قول يصدر عنهما، دبرا له مقلباً.

بدآ يزينان له القيام بتجريب خلطة نجحت في تفتيح بشرة الكثيرين، شيطانان ملعونان ظلَّا يغريانه دون كلل أو ملل، وهو الرجل الذي تفلّ إرادته بمجرد ذكر تغيير اللون. ومديح الشيء يفتح أبواب النفس الموصدة، ولا حيلة مع الإغراء المتواصل. ظلَّا يزيِّنان له الخلطة، ومفعولها السحري، ظلا يغريانه بقدرتها على تبييض البشرة:

أخضر، أزرق، أحمر، أبيض؛ ففرح؛ ولم تدم فرحته سوى أيام...

أغلق المحلّ، ونسي أهل الحي القصة، وبعد مرور عقد من الزمن، أتيت المحل، ارتقيت عتباته بروح عاشقة كما لو كنت أرتقي عتبات ضريحٍ أطلب بركاته؛ لأنصت لعزفه الرائع، كنت أسمعها آتية من أعماق المحل، بل من أعماقه هو، آهاته تكاد تمزق نياط قلبي، عجبت للناس كيف لا يسمعونها؛ يمرون غير مبالين، همهم التبضع، والانصراف، أما الفن فكان آخر همهم، بل إن بعض الجيران اشتكى من موسيقاه. يرمونني بنظراتهم المستغربة؛ وقد رأوني أتابع بخشوع النغمات الصادقة، بهز رأسي، وانحدار الدمع من عيني. وكنت أتخيل العود في أحضاني، أعزف عليه بصدق مشاعري، كنت غارقاً في اللحن، وإذا بي أحس، أن العود، فعلاً، بين أحضاني صدره يلامس بطني، شعرت أنني وإياه قد اندغمنا، فصرنا واحداً، انصهارٌ أسعدني، ورفعني إلى أعلى الذرى. سررت بهذه الهدية الجميلة، فزاد حماسي..

كنت منغمساً في عزف اللحن الذي سكنني زمناً، كنت منهمكا في العزف على العود وقد منحني أسراره، وطاوعت أوتاره أناملي المسكونة بالجمال، لم أكن أهتم بما حولي، أنا في لحظة تجلٍّ مجيدة، روحي محلِّقة في سماء النشيد الأزلي، وبمجرد ما توقفت حتى ضجَّت القاعة بالتصفيقات، خلتُ، للحظة، أن الرجل لمس كتفي وهمس في أذني: تستحق عودي، فخذه، إنه لك.

في تلك اللحظة، وكمن رفع عنه الحجاب، أو أصابه مسٌّ ما، رأيت فيما يراه النائم:

أن الأرض تنشق ويظهر منها رجل ضخم، قوي البنية، بشعر متموج، ببشرة حليبية، يرتدي بذلة بيضاء، وحذاء من اللون نفسه، بوجه عطر الابتسامة، يخاصر فتاة بفستان أبيض يمتد إلى الأرض، قمحيَّة اللون، بشعرٍ أسود فاحم، منسدل خلف ظهرها، وبصدرٍ نافر، وخصرٍ نحيف، كانت تبتسم هي الأخرى، في وضع يشعرك برضاها، نظرا إلي بعذوبة، ثم رفرفا في الفضاء لفترة، هو يعزف بعوده أروع الألحان، وهي تغني بصوت شجي ومؤثر. ثم حطا بقلبي.

فتحت عيني لأجد الحيَّ فارغاً من الناس، وقد سادته ظلمة قاتمة بعد أن غادرته الشمس.

قبور حائرة

انفلت فنجان القهوة من بين يدي كما الماء من فرجة الأصابع، فاعتبرت الأمر نذير شؤم، تناثرت شظاياه، وساح السائل الأسود فوق الأرضية المبلَّطة لغرفة الطعام، رفعت عيني الحزينتين إلى صورة أمي التي كانت تعدُّ لي فطوري الساخن، فحبست دمعة كادت تنذر بهطول؛ كانت تعدّني ابنها المفضل الذي سيحقق لها حلماً طالما راودها وهي تتابع نجاحي الدراسيّ المبهر، لكنَّها توفيت في منتصف الطريق.

لابدَّ أن التحطُّم قد أيقظ أبي فتقلب في فراشه لاعناً هذا الابن الفاشل، أضاع عمره في الدراسة من دون طائل، وأرهقه بمصاريف زائدة، هو الذي كان ينتظر مني أن أساعده، وأكون له فخر العائلة. صرت معرته، هكذا يظن، أعذره، فالسبب ليس فيَّ ولا فيه، ولكن في هذا الزمن الأغبر، ضيق فرج الحياة على أبناء الفقراء، ووسعها على تلك الأسر المظفرة بالمال والنفوذ، وكأن الله خصَّهم بنعيم الدنيا دون غيرهم.

ارتديت لباسي، قميصاً مفتوح الصدر أسود، وسروالاً مكوياً بعناية، أحرص على أن تكون طيته حادة كموسى، وانتعلت حذاء جلدياً لَّمعته لأن الحذاء اللامع دليل مكانةٍ في المجتمع، لا بأس من خداع النفس أحياناً.. ولأن حبيبتي غادرتني إلى حضن زوجٍ يمتلك رصيداً مالياً، يحرص على أن تكون أحذيته لامعة على الدوام.

لا أعرف أين سارت بها الأيام، لا يهمني ذلك، فقد أحرقت لحظات لقاءاتنا، وجمعت رمادها في ثنية قلبي، وطمرتها بدقة حتى لا تعكر مزاجي الرائق هذا الصباح؛ سأخرج لأستمتع بأشعة الشمس الدافئة، لن أضيِّع وقتي في البحث عن عمل، فالتجربة علمتني أن الأبواب ستكون موصدة، ومن العيب أن أقضي وقتي الثمين في البحث تاركاً متع الحياة البسيطة تهدر.

خرجت منتشياً... مخلِّفاً ورائي تلك الطاقة السلبية، لن أسمح لها بتجعيد فرحتي، وتجريعي سمَّ الحزن في هذا الصباح المشرق.

حيُّنا العتيق يشهد حركةً باكراً، أنتشي بسماع أغنية الفنانة "خربوشة" وهي تصدح بالتحدي، وترفع سقفه بعيداً بالتحريض على القائد المتجبر؛ يأتيني صوتها من دكان السي العبدي، بقال الحي، وإمام المسجد، أرتاح له وهو ينصحني بالصبر وتكرار المحاولات، بخلاف غيره الذي يتتبع عورتي، كنت أشعر بغضب من قول الجيران: فين وصلتي؟ هم يطرحون السؤال كمن يقف إلى جانبي مسانداً، لكن قراءة ما وراء الكلمات تخبر بسمّ ما تنطوي عليه من سخرية وحقد. فين وصلتي، لا تعني إلا أنني فشلت رغم اجتهاداتي وتفوقي في الدراسة، بخلاف أبنائهم الذين فشلوا دراسة ونجحوا في ممارسة التجارة التي ذرت عليهم أموالاً محترمة من حيث الكم...

مع المدة وانصرام الوقت، تعودت على وخز إبرهم هم الذين يستمتعون بالفضائح، ويشهرونها استمتاعاً: لقد ضبطوا المغني الفلاني عارياً، لقد شوهد الزوج الفلاني يخون زوجته... هم بذلك يشغلون أنفسهم العارية من كل عمل، وفكر، ويسحبون الفشل على غيرهم؛ أليس الهجوم أفضل وسيلة للدفاع؟ بيوتهم من زجاج، ورغم ذلك يرمون الناس بالحجارة. تباً لسلوكاتهم العرجاء، محطمون هم، يعيشون في توابيت ولا يشعرون... أدركت أن خربوشة استطاعت غرس شوكة في حلق وإست القائد العيادي، تحدَّته، هي المرأة الرافضة للظلم، وعلمت لم يدعوني البقال بالعبدي، لقد كانت أمي تنحدر من تلك المنطقة التي أنجبت خربوشة، بل إنها من عائلتها. صرت أفخر بالمغنية والزجالة، وأشعر بالقوة كلما استمعت لروائعها.

ما إن ابتعدت قليلاً عن منزلنا حتى اعترتني رعشة برد، كان الظل يبسط سلطانه علي، ظننت في بادئ الأمر أنها سحابة صيف ستزول لأنعم بدفء الشمس من جديد، لكنها لازمتني؛ خيل إلي أنني رسول، ضحكت سراً، انتهى زمن الرسل، لا أخفيكم أنني انتفخت قليلاً، ثم انكمشت، فالغرور قد يؤدي إلى الجنون. أستغفر الله، لست إلا عبداً ضالاً ؛ لا مُضلّاً. قلت في نفسي: قد يكون الظلّ الفسيح لطائر جارح، عظيم الجناحين، رفعت رأسي لأتأكد، خاب ظني، فلم يكن ما ينشر ظله علي إلا جسماً غريباً، حرت في تحديد هويته، دققت النظر، شعرت برعب، فانسللت إلى المقهى القريبة، كنت أرتادها قبلاً، كانت غاصَّة بالزبائن، كل واحد قد انخرط في شغل ما: قراءة الصحف، أو متابعة المارين؛ اخترت أصدقائي الذين يقضون جلَّ وقتهم في لعب الورق، وانغمست كلياً في اللعب، إلى أن دبَّ تيار التعب في جسمي، حينها كان الوقت ظهراً، وفي بطني فراغ، نهضت، ناسياً أمر الجسم الذي ما إن لمحني أخرج حتى تبعني كما لو كان قمراً، أينما ولَّيت وجهك وجدته قريباً منك. سرت وسط الناس أستشعر دفأهم، إلى أن بلغت مطعماً شعبياً وكنت أتَّقي النظر إلى الظل الملازم، دخلت إليه، وطلبت صحن "كرعين بالحمص"، أتيت عليه كاملاً، ثم أتبعت الطعام بكوب شاي ساخن، حتى يذيب الدهون. ونهضت متثائباً، كانت النشرة التلفزية تظهر قبوراً كثيرة دفن فيها ضحايا تعصب مقيت ضرب بمرضه أرضاً مسالمة فحولها تنوراً تغلي بالحقد.

خرجت سريعاً حتى لا أصاب بالدوار. في الشارع كان ما يزال متابعي موجوداً، قررت لحظتها أن أراوغه بالذهاب إلى الشاطئ، لأستمتع بغروب الشمس، فلربما زوال النهار قد يؤدي إلى زوال الظل، قلت في نفسي: لأسترق النظر حتى أعرف كنه الجسم الغريب، فمعرفة الشيء تقود إلى إبعاد الخوف منه. وجدته مجوَّفاً، كما لو كان زورقاً، ثم تبيَّن لي بعد تدقيق وتمحيص حقيقته، شعرت برعبٍ حقيقي يحاصرني، فلم أجد سوى الدخول إلى الماء لأختفي، كنت أسيرُ ثابت الخطو، ولم أكن أدرك أني أغرق، لكن الأمر الأكيد أن الظلَّ الذي لازمني طيلة اليوم، لم يكن سوى قبري.

فولاذ

١

في صباحٍ مشرقٍ التقى بها، حملها على متن سيارته الجديدة، ذات الدفع الرباعي، وسار بها إلى مطعم فاخر، وهناك فاتحها برغبته في أن يقترن بها، وقد لاحظت أنه ما مسَّها خلال مدة تعارفهما، وأنه ظلَّ عفيفاً، لم يمدّ يده باشتهاء، لم ترد عليه، ظل ينتظر جوابها بصبر نافذ إلى أن فرغت من الطعام، ثم أعقب الإعلان بآخر أروع، أنه سيعينها سكرتيرته الخاصة، بمكتب خاص بها، بعيداً عنه قليلاً، وأنه قد اشترى لها منزلاً باسمها، يمكنها الانتقال إليه صحبة أسرتها متى شاءت. كانت الأخبار السعيدة تتوالى، ويتوالى ارتفاع نبضها، وصوت من داخلها يدعوها لقبول الهدايا السنية. وفي الأخير، قبلت، سرَّ الشابُ الوسيم، فقد آن أوان تكوين أسرة متماسكة، تخرجه من فتوحاته النسائية الفاشلة، إذ تنتهي بمجرد انتهاء الليلة الصاخبة.

١*

كان المقهى يسبح في هدوءٍ يريح الأعصاب، يطل على بحر قد امتصَّ غضبه، فلم يكن تشوب اطمئنانه شائبة موجة، وكانت الشمس في رحلتها الأبدية تسافر باتجاه الغروب مخضبة الأفق بعطر المحبة وحناء الخلود، وكانت النوارس جوقة زغاريد تبارك اللحظة.

٢

كان الجيران يرقصون حولها ويغنون مشيدين بروعة حسنها: للا حسنا يا قطيب اللوز.. خليوها الدوز، وكان هذا يشعرها بالفرح والسعادة، سرعان ما تذوب تلك المشاعر حين تراه مدبراً بنظراته عنها، هل فعله من قبيل التعفف؟ ربما، تأكلها الحيرة، ويصيب حقولها اليباب. ينتابها شكٌّ ما، تحاول إبعاده، الآن، صارت متأكدة، لم يعد من مفرّ، كل سبل الظن الحسن صارت مقفلة!.

٣

حمل على وجه السرعة إلى مستشفى المدينة بعد أن وضعوا عضوه في كيس بلاستيكي، وأجروا له عملية إعادته إلى موضعه، نجحت العملية في اللصق لا في إيقاظ الهمَّة. وبعد أن غادر المستشفى، صار رفيق القنينة والكأس، يقضي وقته مع الصحاب، يعابث بحرقة نهود الصبايا، ولم يجد في القنينة سوى عزاءه المضاعف. لا يبرح منزله من دونها. يقيم السهرات ليمتع حاسة الراح بالراح. ويكتم غيظاً ما برح يشتد.

٤

مرة ، وقد امتلأت تحدياً، خرجت، يملؤها إصرار غريب على اقتحام الصعب، بتنورة قصيرة، بيضاء شفافة تظهر تبانها الوردي، وتي شورت، يظهر مهوى النهدين، وأسدلت شعرها الفاحم والمتموج بنسائم الأحلام، وتعطرت.

خرجت من المنزل متوجهة إلى مدرستها، وكانت تحمل على ظهرها حقيبة كتبها، طبعاً، تخففت من المقررات الثقيلة، وسارت بخيلاء، جذبت أنظار المارة، وبقي الصديق المأمول غاضّاً بصره لا يريم، كادت تنفجر غضباً، لكنها كتمت غيظها، وسارت، عزاؤها أن السيارات توقفت فجأة، وكادت تصطدم فيما بينها، فارتفع زعيقها، مصحوباً بالتعاليق الحالة والنابية، وكان أن فسح لها بين العربات طريق سلكته، وهي تفعل، شاهدت شاباً غائم الملامح مكشراً يحمل قضيباً حديدياً، كان يسير باتجاهها، الشيء الذي أرعبها، فتجمدت في مكانها وما كان يفصل بينهما سوى مسافة صغيرة، أحست بالخطر يدنو منها، ومجانين مدينتها معروفون بفتوحاتهم، ما أنقذها سوى شاب كان يقود سيارة فاخرة فتح لها الباب، ودعاها للركوب فاستجابت كالمنوَّمة، وبعد لحظات، نظرت إلى الخلف لتتأكد من زوال الخطر، فرأته يلوح بقضيبه راسماً في الفضاء لوحة تعبر عن الاختراق؛ أصيب الآخرون بالصدمة والذهول، بل بمرارة الخيبة، وهم الذين رسموا في مخيلاتهم لذاذة القطف، وسرير التقلّب الضاجّ بالمتعة. سار بها إلى باب ثانويتها، وهناك نزلت، وما كادت تفعل حتى أحاطت بها صويحباتها متسائلات، لحظتها تذكرت أن الشاب كان يلاحقها قبل اليوم، وأنه ما مرة فتح باب سيارته لها فتجاهلته، ثم تذكرت أنه سيوصلها كلما احتاجت لذلك، وأنه رهن إشارتها. وكذلك كان، وكانت رغبتها في إيقاظ الصديق المأمول، بزرع الغيرة في نفسه، يحذوها الأمل في فتح قفله، وقراءة صندوقه الأسود المغلق بإحكام، تصيره أبيض عرسها..

٥

حسناء التي كانت متوجهة إلى مكتب المدير حاملة بعض الملفات للتوقيع عليها، استوقفها الصراخ، كادت تفقد وعيها وهي ترى الشاب يحمل بين يديه عضوه يقطر دماً، بذلت مجهوداً كبيراً حتى لا يغمى عليها، دقَّقت النظر، وأحست بهول الصدمة، إنه ابن حيهم، الشاب الخلوق، كانت تريد أن يكون لها أكثر من صديق، لكنه كان يظل ساكناً في جلوسه بسلبية لا تضاهى، كان يقعي في رأس الدرب، يعبث بقضيب حديدي، ينكث به التراب، حين تمر، وهذا كان يغيظها، لم يكن يرفع رأسه نحوها مستطلعاً، لا يحمل في عينيه نظرات العشق، وهي التي عرفت بتوهجها، فأمها كانت تبخرها قبل خروجها، وتدعو لها بالحفظ من عيون الأشرار والحساد، وتقول عنها، كما يؤكد قولها الجيران: أنها فلتة من الطبيعة.

تقف أمام المرآة تستطلع تضاريس جسدها، تستقرئ نقاط غوايته، تسعى إلى البحث عن لغته الحارقة، تريد أن تجعله يتكلم حتى يسمع نبضاته ذاك القابع في حناياها وفي الدرب واقفا كتمثال، أو قاعياً ككلب أجرب. رغبتها أن تلفت انتباهه، أن

توقظه من غفوته، أن تحرِّك فيه نسمات الحياة، أن يراها بكامل فتنتها، فكيف تمرُّ أمامه ولا يراها؟ لا يشمّ عطرها النافذ؟ لا يحسّ بطراوة حضورها ونداوة وجودها؟.

٦

كان لصرير باب المصنع وهو يفتح مفعول السحر، فقد توقف من كان يتحدث، ووقف من كان قاعداً ينتظر، واستدارت الرؤوس إليه مستطلعة. وكأن يداً خفيَّة سحبت كل الإناث، ثم انغلق. بقي الذكور يندبون فحولتهم، وينظر بعضهم إلى بعض متسائلاً. بيد أن سعيد، الشاب الخجول، والذي عرف بصمته وانطوائه، وقف بحزم، ولأول مرة، أنزل سرواله وأتبعه بتبانه، وصرخ لافتاً الانتباه، وبخفة جرّاحٍ متمرِّس، قطع عضوه، ورفعه متحدياً، قائلاً: ها أنا ما عدت رجلاً، فشغّلوني، ما كاد ينهيها حتى سقط مغشياً عليه..

٧

بعد أن تمددت على السرير الناعم، وقد بقيت بروب وردي حالم، كان الشاب الوسيم في الدوش يأخذ حماماً، ويتعطر، وكان يدندن بأغنية عشق حفظها منذ التقى بها؛ كانت تعبر عن الحب المستحيل، وهو يغنيها بخفوتٍ تبسم، لا حب مستحيل إذا كان صافياً نقياً. وبعد لحظات، وكانت حبيبته تتابع مشهد شريط سينمائي اجتماعي، عاد إليها فرحاً، ثم اندسَّ إلى جانبها يلاعبها، وما دار بخلد أي منهما أن رجلاً بلباسه الرثّ سيقتحم عليهما خلوتهما المعطرة، إذ حين همَّ الشاب بتقبيل حبيبته، ظهر الرجل وهو يحمل في يده اليمنى قضيباً حديدياً، وكان اللعاب يسيل من فمه، ثم هوى بها على الشاب، قفزت حسناء من السرير خائفة، لم تستطع الصراخ، أخرس المشهد لسانها، ظلَّت قرب الباب المفتوح جامدة، وفي الأخير، واتتها الشجاعة فاستنجدت بالهروب..

مقت

قد يبدو لكم أني لما رفعت يدي إلى أعلى عليين، وضممت قبضتي، ثم هويت بها على الطاولة، أنني كنت مستاء بل غاضباً من المشهد الاحتفالي الذي جرى أمامي عارياً من كل أخلاق، حين بدأ الرجل، في الساحة العمومية، وأمام أنظار متفرجين لم يحركوا ساكناً، بل ظلوا واقفين مشدودين إلى المشهد بعيون تحمل شهوة المشاركة، يضرب زوجته بكل قسوة، ويستخدم في ذلك اليد والرجل، واللسان، أما هي فقد ظلت متكورة على نفسها، ساكنة، لا تبدي مقاومة، تتلقى الضربات واللعنات بصبر غريب، كنت أسمع صدى الفعل يطنُّ في أذني ويوقظ الغضب بداخلي كجمرة مشتعلة لا تريد انطفاء، إذ طفت على صفحة ذاكرتي، لحظة مقت أو غضب، أو ما شابه، انقذاف ما يختزنه فمي وحقارتي في الآن، ليلتصق بصفاقة على وجه من ظننتها حبيبتي. فقد اعتقدت، وكنت طرقت باب منزلها ولم تفتح لي، أنها كانت تخونني مع أستاذها الذي يساعدها في فهم دروس الرياضيات، كنوع من الدعم والتقوية، وكنت أظن أنها حيلة اقترفتها لتختلي به، كما كانت تقترف ذلك معي لتبعد عيون أبيها وتستفرد بي. فقد رأيته خارجا من المنزل وكأنه كان يرفع سرواله ويسوي حزامه، خيل إلى أنه كان قد انتهى من درسه الجنسي، ففار دمي، وحين غاب وأطلت علي بوجهها المحمرّ، زاد انفعالي، فقذفتها بما تراكم في فمي من لعاب، وانصرفت غير عابئ بدفاعها عن نفسها ولا بما خلفته في نفسها من ألم. آه من الألم! ، يستبد بي الآن، ويطغى على كل شعور، شعرت بحقارتي وضآلتي، كيف أمكنني فعل ذلك؟، لم تأتي الوقائع لتحيي سفالتي؟ عشت أحمل عبء فداحة الفعل، وأتطهر منه، لكن جذوره ظلت ضاربة بقوة في أعماق نفسي، كل حدث يذكرني بما فعلت، قد يكون ذلك حتى لا أنسى، وحتى لا أكرر السلوك المنحط.

قمت، وبكل جدية وتصميم في التطهر النهائي من مقعدي، وسرت بثبات إلى الرجل، نزعت منه حزامه، وبكل عنف، هويت به عليه، وكانت الأنظار مستغربة فعلي غير المتوقع، وبقيت مستمرا في الجلد إلى أن غاب عن الوعي، وصرت منهكاً لا أقوى على الإتيان بأي حركة، كانت ضربة خفيفة على قنة رأسي، تحملني على مرافقة غريمي. وحين استعدت وعيي، أخبرت أن الزوجة هي من قامت بذلك، هي من سارعت إلى حمل حجر وضرب رأسي به.

انكسرت حين هوت قبضتي على الطاولة.

ولولة

أمي وهي تتابع المسلسلات المدبلجة أيًّا كان جنسها وجنسيتها، تنظر إلي بابتسامة بريئة وتخبرني أن الممثلين يشبهوننا، إنهم منَّا، يتحدثون بلغتنا، ويستعملون مفرداتنا نفسها. وحين أخبرها أن هؤلاء لا علاقة لنا بهم، تنظر إلي شزراً، وتؤكد لي أنهم مسلمون مثلنا بدليل توظيفهم كلمات من الحقل الديني: استمع لهم، ألا ترى أنهم ينطقون بالسلام، ويستشهدون بآيات من القرآن الكريم؟ لا أجد لديَّ القدرة على إقناعها، هي التي اقتنعت مسبقاً بأنهم أبناء جلدتنا.

أمي امرأة لم ترتد المدرسة ولا الكتاب، طيبة القلب بريئة كالأطفال، لم تغادر المنزل إلا مرات معدودات، الآن، بلغت من العمر الثمانين، احدودب ظهرها قليلاً، لكنها مازالت تحتفظ ببعض قوتها تمكنها من تهييئ طعامها بنفسها، والاعتناء بدارها كما كانت تفعل منذ أزمان، وكأنها تترقب عودة أبي في أية لحظة. فلم تقتنع بموته إطلاقاً. ترى ذلك غيبة تعقبها عودة أكيدة.

تحبُّ أن تعتني بمظهرها، وتكون في أبهى زينتها حين تتابع المسلسلات ذات الشخصيات الذكورية الوسيمة. بها تستعيد ذكريات جميلة قضتها صحبة أبي، إذ كان يهديها وردا كل مرة غاب عنها لعمل. ويصطحبها إلى المقهى البعيد عن أعين المدينة حيث يقضيان أوقاتاً ممتعة من البوح اللذيذ. تلك أيام سعيدة مازالت تترقب عودتها بعودته.

كانت تقرب الكرسي من الجهاز، وترفع الصوت، وتدني أذنيها منه والعينين، ورغم تحذيراتي لها من مضارّ مثل هذا السلوك، فلم تقلع عنه، إذ تحب أن تسمع وترى عن قرب، ولا يشبع نهمها الابتعاد. ثم إن ذلك يملأ حياتها وجوانحها ومشاعرها بعد أن ترك أبي فراغاً في حياتها لا يمكن ملؤه.

وحين تشاهد مطراً يهطل، ينتابها شك ما، فتتسلل إلى الصالون، تفتح بحذر النافذة وتطلّ، ولما لا تجد غيثاً، تعود خائبة، وتقول لي: لم لا يسقط المطر عندنا رغم أنه يتساقط هنا؟، أؤكد لها أن ذلك المطر قد سقط في زمن آخر، ومكان آخر، وأنه مطر تم تصويره في بلاتوهات، وأنه ليس حقيقياً. ثم أعود إلى نفسي نادماً على ما قلته لها. أسعى إلى إرضائها بأنه سيسقط هنا كما هناك بعد فترة، إذ أني أدرك متأخراً أن ما أقوله لها لن تستوعبه، وأنني أحملها ما لا طاقة لها به، فكيف يمكنها أن تستوعب ما يتجاوزها، هي التي، بالكاد، تعرف كيف تشغِّل التلفاز، وكثيراً ما تضيع القنوات، وتنادي علي لكي أعيدها أو أعيد ترتيبها حتى تتمكن من متابعة مسلسلاتها المفضَّلة.

حين تخرج صحبة أبي، تظلّ خلفه، محافظةً على المسافة التي تفصلها عنه نفسها، من دون أن تزيد فيها أو تنقص، لاعتقادها بقناعة أبي، أنَّ خلف كل رجل عظيم امرأة، هي تعرف جيداً أن أبي ليس رجلاً عظيماً بالمفهوم المتداول، ولكنه عظيم بالنسبة لها. فهو لم يمسس شعرة من رأسها، ولم يهنها كما يفعل الكثير من الرجال. صحيح أنه لم ينادها باسمها طوال عشرتهما التي دامت نصف قرن، لكنه ناداها به يوم كان على فراش الموت، وكم أسعدها ذلك، فقد وجدت في لفظ حروف اسمها رنَّة بل نغمة لا تضاهيها أيَّة نغمة، كانت عذبة كماء زلال، أطفأ لهيب رغبتها في سماع صوته يتلوَّن بحروف اسمها، ويروي حقلها المتعطش لصبيب الصوت يغرد بالمطر يتراقص على أديمها.

لقد طفرت من عينيها دموع الفرح والحزن معاً، تضافرا بحيث لم تعد قادرة على التفريق بين الإحساسين المتناقضين.

قدمت مرة باكراً من عملي، فوجدت أمي وقد تحلق حولها أبنائي، تتابع شريطاً وضعه ابني البكر، ظناً منه أنه سيسعد جدته، وإذ رأست زوجها يتكلم، ارتعبت، وصرخت، ألم يمت؟ هل سخر منَّا؟ ولأنها كانت قد تخفَّفت من لباسها الثقيل قليلاً، فقد عدت إلى غرفتها مولولة: يا لفضيحتي! لقد رآني عارية، أين سأخفي وجهي منه؟!

الكلمة

الكلمة التي سيلقيها أمام الجمهور الغفير..

الكلمة التي سهر ليالي لإنجازها...

الكلمة التي قضى الطريق كلها يرددها ليحفظها...

الكلمة التي كتبها على الورق ليلقيها بفصاحة...

كان قد وضعها في جيب سترته الجديدة ذات الألوان الجذابة، حتى يتمكن من خلق انطباع جيد لدى الحضور.

بحث عنها طويلاً؛ كان يشعر بالحرج و هو ينقل يديه من جيب لآخر.

تذكّر، الآن، أنه لا يرتدي ستره الجديدة، و لكن، فقط، منامة حال لونها؛ لكثرة استعمالها. تنبه، اللحظة، أنه ليس أمام جمهور متعطش لسماع كلمته الفصل، بل إنه مازال فوق سريره يتمطى، لم يبرحه. حتى أن الورقة البيضاء المشبعة بمشاعر الحزن، يراها قابعة ببرودة فوق مكتبه المزدحم بالكتب و الأوراق، و المجلات، بفوضى منعشة للحيرة، و أن قلمه لم يشبع نهم الكتابة؛ إنه لم يلامس، مجرد لمس، الورقة المضطجعة بالقرب منه بإغراء، يكاد الإحباط يداهمها و يداهمه.

نظر إلى كلمته المعلقة بأستار الغيب، لم يتحرك، لم يشتغل كعادته، و كأن برودة اعترته فسكنت عروقه فأخمدت لهيب دمه، ظل صامتاً، هو الآخر، و كأنه لا يريد للحظة الصمت المهيمنة على المكان أن تفقد بريق متعتها، أو كأنه عابد متبتل، لا يريد أن يخدش قدسيتها.

إذن، هو لم يذهب إلى القاعة، لم يقف فوق المنصة، لم يمسك بالميكروفون كما يفعل الخطباء المفوهون، لم يكتب الكلمة المقدسة. سترته الجديدة مازالت معلقة على المشجب تنتظره بلهفة، بدت له، للحظة، كعلامة استفهام محيرة.

سينهض، الآن، لتدوين كلمته المعشوقة، سيمنحها عبق روحه، و يفرغ فيها صفاء مشاعره وخلاصة أفكاره، سيحدث بها زلزالاً عاصفاً في تلك القاعة الفسيحة، وستتحدث عنها الصحف لفترة طويلة. ستكون حدث السنة ولا شكّ.

نهض بكل الحماس الممكن؛ و صدى الحلم يراقص أعماقه، واتجه صوب المكتب بهمة ونشاط؛ وكانت الأفكار قد انسجمت في رأسه، وصار أمر صوغها قضية لحظة، فقط. لكن، مهلاً، ماذا يوجد قرب الباب؟ سار باتجاهه، وجد جريدته اليومية بانتظاره، التقطها، وجلس إلى مكتبه ليتفحصها، يطالعها بتمعن، قبل تحبير كلمته الفصل.

وهو يقلب الصفحات، لفت انتباهه مقال صغير، مصحوب بصورة واضحة المعالم، وعنوان بارز...

لم يقرأ المقال، بل شدته الصورة والعنوان، بقي للحظات خارج إرادة وعيه، فقد سلبته الصورة الإرادة، وسحره العنوان، فامتصَّا نشاطه الذي شعر به قبلاً.

كان العنوان: فضيحة!

وكانت الصورة له، تظهره وهو فوق منصة الخطابة مترنحا يسيل الدم منه وقد أحاطت به الكراسي الفارغة من كل الجهات، وكأنها تسعى إلى شلِّ حركته.

أحس وكأن سطل ماء بارد صبَّ على الجذوة المشتعلة فيه فانطفأت بشكل سريع.

حصار

قال لي: يوماً سأقتلك؛ قالها بغضب وانطفأ؛ أقصد غاب بسرعة كما لو تبخَّر، لم أدرك غيابه المفاجئ سوى من خلال الباب الذي ظلَّ يتحرك كما قلبي المضطرب، ربما خوفاً، ربما بسبب المفاجأة اللا منتظرة...

تركني غارقاً في حيرتي

ترك لي صورته الغائمة قشَّةً أرجو بها الطفو للنجاة...

استنجدت بذاكرتي أبحث في أوراقها، أقلّبها عساها تسعفني بجوابٍ يبلُّ ريق فضولي...

لكن الخبر الذي ظهر على شاشة التلفاز كاد يشلني: العثور على جثة غارقة في دمائها بمنزل يشبه منزلي، وأن الشهود أكدوا أنهم رأوا المجرم يخرج من الشقة بسرعة البرق، فلم يتمكنوا من مشاهدته بوضوح؛ فقد ظلّت ملامحه غائمة في أذهانهم، غاب بسرعة كما لو تبخر، كل ما استطاعوا تقديمه من إفادة، أنه متوسط الطول، وربعة، واختلفوا في هذا الطول قليلاً...

وأنا أتناول فطوري بالمطبخ كالعادة، سمعت طرقاً قوياً ومتواصلاً على الباب، وبعدها سمعت كلمة الشرطة، تفاجأت، تحاملت على نفسي لأفتح لهم، لكنهم كانوا الأسرع فاقتحموا الباب. أحاط بي رجلان قويان، فيما الثالث، بدأ يقلب نظره في البيت، يتقرى محتوياته، وفي لحظة واحدة وقع بصره وبصري على شيء مريب، شيء ملفوف في خرقة بيضاء بها بقع دم. لم ألحظه حين كنت لوحدي، فتساءلت: من أين جاء؟ ومن وضعه هنا، وعلى مكتبي، وقرب رواياتي بالأخص؟ من له غرض تلبيسي جريمة أنا بريء منها؟

قال لي المفتش: لمن هذا؟

لا أعرف؟

كيف لا تعرف وهو في بيتك؟!

أقسم إني لا أعرف، علمي علمك...

لا تتذاكى.!..

وبعد أن فكَّ الشيء، تبين لنا جميعاً أنه يحتوي على السكين التي قتل بها رجل الشقة، فانفتحت دهشتي على أشدها...

طيب، ستذهب معنا لمقر الشرطة لاستكمال التحقيق، وإرسال الأداة لرفع البصمات عنها.

وفي المخفر، نزلت عليَّ الأسئلة كالمطارق؛ أصابتني بإغماءات متكررة. كنت صلباً في الإنكار، وجاءت نتيجة البصمات لتؤكد للمحقق أنني بريء، فليست البصمات التي على السكين بصماتي، ورغم ذلك، أصرَّ على إبقائي ضيفاً لديهم حتى تتوضح الأمور، ويظهر الجاني، ويلقى القبض عليه، إذ احتمال كبير أن أكون أنا من سخرته لإشباع انتقامي من الضحية!

لا أعداء لي..

الكل له عدوٌّ يريد قتله؟!

ماذا أقول لكم؟ كنت محاصراً بحيطان الزنزانة المظلمة، لا يخترقها سوى شعاع ضوءٍ شاحب آتٍ من البهو، محاصراً بهذه الرائحة النتنة، الشبيهة برائحة لحم متفسخ؛ محاصراً بأسئلتي الوجودية، دائخاً إلى حدِّ الجنون. أحسست في لحظة أن هناك من أمسك بمقبضي كرسيي المتحرك، رجَّني قليلاً، ثم أتاني صوته المألوف، قائلاً: ألم أحذرك...

بصعوبة استدرت لأبصر المتكلم، لكنه غاب بسرعةٍ كما لو تبخَّر..!

دوائر القلق

جوٌّ ربيعيٌّ رائق، بنسائمه ، أشعرني بالانتعاش، خيوط شمسه الذهبية الدافئة حرَّكت فيَّ فضولاً ظل قابعاً في أعماق نفسي زمناً، هذا الهاجع في يستيقظ. تمدُّ الرغبة يدها إلى سلَّمي الأثري، تحفزني على ارتقائه، هو سلم توارثناه أباً عن جد، ورغم أني لا أعرف كيف حافظنا عليه، بعد أن ضيعنا رفيق دربه في الفتح، المنجنيق العجيب؛ لكنني أجده واقفاً بشموخ لم يفقده، رغم توالي الزمان وأحداثه الجسام، أمامي، يقوي في رغبة الاكتشاف. وللعلم، يا سادة، فهذا السلم الخشبي المصنوع من أشجار الصنوبر، مازالت تنبعث منه رائحة الأطلس الشامخ، كان لأحد أجدادي، ساعده، صحبة آخرين، على ارتقاء السور العالي، واختراق الحصن المنيع، ومن ثم سقوط القلعة بسهولة، أكسبت جدي، ذاك، مكانة واحتراماً.

ها أنا أقف، أسير باتجاهه بكل عزم، لقد قويت إرادتي، واشتعلت رغبتي، أمسك به، وأرتقي أدراجه، وبي سؤال حارق؛ أن أعرف ما يوجد وراء هذا السور العابث؟ فقد ظل لفترة طويلة يحتويني تحت جناحيه. وجدت بحراً هادئاً بنعومة، لما أبصرني، فتح ذراعيه اشتياقاً وناداني، لبّيت النداء بالارتماء في أحضانه، وسبحت مدة، لأجد نفسي في يابسة، فوق رمالها المنعشة تتمدد حوريات يأخذن حمام شمس، أحسست بتخمرهن، وبصعود رائحة الشهوة منهن، وحين أبصرنني تحركت لديهن غريزة الحب، ظنني أني فحل آت من أدغال إفريقيا لإرواء عطشهن، ونسين أنني من سلالة طارق. شمخت بأنفي وتابعت مسيري، لم يستوقفني سوى صافرة على إثرها تجمعت الصبايا في طوابير، بعد أن تلفعن بأردية سوداء أخفت معالمهن، وطمست جمالهن الفاحش، ثم سرن في طرق مختلفة. وإذ اختفين. مطارق التعب أيقظت في الرغبة في النوم، فاستجبت طائعاً. كم لبثت؟ يوماً أو بعض يوم، لا أدري، كل ما أدريه أن الزمن نهر دائم الجريان، يتجدد ماؤه، لا يأسن أبداً. كل ما أدريه أنني أكملت طريقي وقد استبدت بي الحيرة والاندهاش، واتسعت دائرتهما وأنا أبصر حرائق من كل الجهات تأتي بطرفة عين على الحقول كلها، والجنان، فما عدت أرى تلك الأشجار الباسقة، والطيور المغردة، كل شيء جميل صار أثراً بعد عين، وأنا أبصر خيولاً جامحة فرَّت من قسورة، ولم أرَ عليها فوارس، وبعدها بقليل أبصرت رجلاً من الذين أنعم الله عليهم بالخوف، يعدو بكلّ ما أوتي من رغبة في الحياة، والدماء تسيل من جسده المكلوم، قدرت أنه فارس قد أضاع نصره، لما أبصرني قال: انج سعد، فقد هلك سعيد. وما كنت لا سعداً ولا سعيداً. لحظتها علمت أنني قد جئت مكاناً تزامن وسقوط ممالكه، وفقد سؤدده. أكاد أجزم أنه يشبه ساكن أغمات، ذاك الذي أثر في نظمه، كنت حينها سجين مقاعد

الدرس، وهو يرى أقدام بناته تخوض في الطين. وعلمت سرَّ نظرات صبايا الشاطئ، أين أضعت نخوتي؟ لقد عرَّتني تلك النظرات المستنجدة، أبانت عورتي ضعفي وجبني. بمجرد وعيي بالحدث العظيم، خرج من مكان مظلم رجلان قويان، أمسكا بي بقوة، وحملاني مرغماً، فلا قيمة للمقاومة حين السقوط، إلى دير عجيب، كل رهبانه غريبو الأطوار، مررنا بممر حف من الجانبين بزنازين تصدح بالألم، زرعت في نسي الخوف، وفي نهايته، أودعت زنزانة فسيحة، أرغمت على الجلوس على كرسي مهترئ، بحاستي أدركت، رغم ضوء المصباح المسلط على عيني، أنني في حضرة رجال يتابعون استنطاقي، وإن لم يتكلم سوى واحد منهما، كان صوته أجشاً، لم يطرح علي سوى سؤال واحد، غريب وعجيب: هل المسيح صلب أم رفعه الله؟ وبسرعة أجبت، لأني ألفت الجواب، واقتنعت به: رفع.

ولم أحس بنفسي إلا وقد رفعت، كما ترفع الشاة أثناء السلخ، رجلي في الأعلى ورأسي في الأسفل. ولا يعتقدن منكم أحد أن ذلك من أجل جعل منيي يغذي دماغي وينعشه، ويعيد إليه توازه المختل، ومن ثم، يطيل في عمري. فالأمر يسير باتجاه القتل لا الحياة. سمعت أقدام المغادرين تحتكُّ بالأرض المبلَّطة، وكأنها تسعى إلى الرفع من حدة توتري، ثم سمعت الباب يغلق بعنف.

بقيت أتأرجح كالبندول لفترة؛ وقد استبدت بي كومة أسئلة، قبل أن أسمع الباب يفتح من جديد، ليدخل رجل بوزرة بيضاء، ووجه باسم، وقد حمل أدوات حادة. هي النهاية الأليمة إذن، عزمت على الصبر حتى لا أقدِّم للجناة فرصة فرح. قام الرجل بنزع ثيابي، الآن، فقط، عرفت لمَ تم القبض علي، بإحداث ثقوب عدة في جسدي، والحق أنه لم يؤلمني البتة، لو كنت حرَّاً لقدمت له شكري الحار على إنجازه الباهر، فقد أشعرني ذلك براحة نفسية كنت بحاجة إليها، هي تشبه الحجامة، تخفف الإنسان من دمه الفاسد، فيستعيد انتعاشه...

بعد عمله الناجح، غادر من دون أن تبدر منه كلمة واحدة، إنه رجل صموت، بقدر عمله، ويحترم ضحاياه، لا يلوث الحضور بالثرثرة. كم أحببته، إنه، فعلاً، رجل يفرض عليك احترامه.

وبمجرد سكون الزنزانة بدأت أولى قطرات دمي في النزول...

وفي القطرة الأخيرة ما قبل الشهقة النهائية، كان فمي عامراً بالعناد وبكلمة: رفع، لكني لم أعرف إن قلتها أم قلت: ورغم ذلك تدور. وإذا بي أسقط من أسفل السلم إلى أعلى الجنون.

طز

قالها بصوت مرتفع لنفسه وللعالم، ثم ضرب برجله كل الخطوط الحمراء التي قيدته لعقود.. كانت الركلة قوية، دقيقة التصويب، مريحة للنفس والبدن، فما أعذب التخلص من هموم الحياة، وأعبائها!

وأقبل على الحانة يستمتع بعصير الدوالي كما لم يفعل من قبل، يعب من ماء الحياة ما حرم منه طويلاً، يكتشف متعة ظلَّت بعيدة عنه بفعل منطق التحريم، يعبُّ ليملأ فراغ ما ضاع منه، يشبع حرماناً اشتدَّ بفعل الصبر الطويل، كان يصوم الاثنين والخميس، و الأيام البيض، وكل أيام الأعياد الدينية غير عيدي الأضحى والفطر، ويلتزم الصلاة ويصبر عليها، لكن تعففه لم يمكنه من بلوغ الزوجة، ولا إنشاء الأسرة الدافئة، فأجره هزيل، وزاد من هزاله القرض الذي حصل عليه لشراء شقة متواضعة بأطراف المدينة. يستيقظ كل صباح مبلل السروال، فيتجه سريعاً صوب الحمام لتحصيل الطهارة الكبرى.

ضرب كل الخطوط الحمراء، بقوة...

وأقبل على الحانة يشرب من نبيذها، ويأكل من لحم فتياتها، كل ليلة صحبة واحدة، حتى إذا ما استنزفهن، انتقل إلى حانة جديدة. تعجَّب من نفسه التي انبسطت أساريرها، ومن وجهه الذي ارتسمت عليه ابتسامة عذبة جذبت إليه الفتيات، وكان قبل ذلك عبوسا قمطريرا، كاد هذا العبوس أن يمتص رحيق ماء شبابه، ويكسو وجهه وحياته بالتجاعيد. وبفعل عدم قدرته على ربط علاقة مع فتاة، انتشرت شائعة تقول عنه: إنه حصور! كم تؤلمه هذه الكلمة، سافرت معه حتى كادت تصير لصيقة به لولا الانبساط المفاجئ؛ لو درى لفعل ذلك قبلاً...لكن، لكلِّ كتابٍ أجل.

صارت له مغامرات، يحمل كل مرة من الشارع أو البار، فتاة إلى ذلك المنزل المنزوي في أطراف المدينة، لم يعد بائساً، صار منثوراً كما لو أنه أدخل إليه الكهرباء، أو أن الشمس صارت صديقة له، يقضي وطره بمتعة كبيرة.

والغريب أن الترقية التي انتظرها سنوات، واجتاز من أجلها المباريات، وتأبت عليه، جاءته على طبق من ذهب، هو الذي يئس من بلوغها، صار مدير البنك المركزي، وتحت إمرته موظفون وموظفات، كانوا يقولون عنه سابقاً، إنه منحوس، رغم أنه استنجد بحجاب طوق به عنقه لكنه لم يجلب له حظاً. أما الآن، وقد صار المدير الآمر الناهي، والموزع للحوافز، فقد أطلقت حوله شائعة جديدة: لقد نال الترقية بفعل الحجاب الذي يطوق به عنقه. أهو نسيان أم أن لكل موقع شائعة تناسبه؟ ربما هو قصور في الذاكرة وعطب لها، ربما هو رغبة في البحث عن منبر لنجاح الآخرين بإلصاق ترقيهم بالأحجبة والبخور.

العين المليئة بتقرحات الأوهام لا ترى أن النجاح يرتبط بالجهد والعطاء، بالكفاءة والنبوغ.

اشترى سيارة بعد أن نفض الغبار عن رخصة سياقته التي حصل عليها في بداية شبابه ظناً منه أنه سينال سيارة تجلب أنظار الناس، وتحقق له الحظوة المطلوبة، لكن أجره الهزيل، ومرض أبيه، والأقساط الشهرية لم تمكنه من بلوغ المراد، فاكتفى بالرخصة كعلامة...

قال لنفسه هامساً: لن أظلَّ رهين أحلامي، لن تظل الحفلة الصاخبة والهمجية حبيسة توهماتي، سأجعلها تنزل إلى الأرض، سأخرجها من القوة إلى الفعل، الآن، صرت ذا مال ونفوذ، وما تنقصني ملاحة ولا قوة جسد، سأنهش اللحم بأسناني كإنسان بدائي، سألتهم الشرائح كلها بوحشية لا تضاهى...

قرر مع نفسه أن يصنع حدثاً تتكلم عنه الصحافة المكتوبة والمسموعة والمرئية والرقمية، لفترة طويلة، ويرسخ في ذهن ووجدان الناس؛ حدثاً لا ينسى، يبقى موشوماً في ذاكرة الأجيال، يرحل عبر الزمان، ولا يتقيد بتقلباته، ولا يعبأ بممسحته. دعا كل موظفيه لحفل باذخ، ودس في المشروبات قليلاً من حبّ النشاط، أقصد فياغرا الفرح، ثم هيأ غرفة نومه للحفل الماجن، تقلبت عليه كل النساء، أقبل على الشرب دون رغبة، والمضاجعة دون متعة، ينتقل من جسد لآخر بسرعة كما لو كان نحلة تمتصُّ رحيق الأزهار كلها، وتصهرها في ذاتها، إلى أن بلغ تلك التي رمته ذات حب بنظرة شزراء، فأفرغ فيها ما تجمع في سده من مياه كانت كالطوفان، شعر لأول مرة بانتشاء رفعه إلى مقام التجلي، حيث رأى العالم في ظلامه الدامس، ورأى نفسه نبي المرحلة، فأشعل عود ثقاب.

ندوب

ما العيب في أن أحبك؟ هل الحب حرام؟ هل يلوث روح الإنسان؟ ما ذنبي سوى أن قلبي نبض بك، فقد رأيتك تختالين فوق منصة عرض الأزياء، وللحق، لم أكن حاضراً العرض، مثلي لا يسمح له بدخول هاته الأمكنة، لكنني تابعتك كمولَهٍ عبر التلفاز، وزاد عشقي لك لما شاهدتك رفقة صويحباتك تختالين في مشيتك ثانية كما لو كنت تسيرين على إيقاع موسيقى صامتة تنبعث من داخلك، ورأيت أن من وجوهكن يشرق البدر، وكانت لضحكاتك فعل السحر في نفسي، فقد كان وقعها مزلزلاً، ما زالت آثاره ساكنة في الأعماق.

أنت الوحيدة التي طار إليها قلبي، رفرف بجناحي الفرح، هو الذي ظل حبيس الظلام زمناً.

لا تهتمي لعبوسي، فبداخلي حقول فرح، بها طفل صغير مازال يلعب بمرح، ويبحث عن فخذ يسند إليها رأسه، طفل قد يقتله التجاهل..

أذكر، مرة، أنني حملت صورتك في قلبي، وتوجهت إلى الشاطئ كمراهق شفَّه الهوى، وكان الوقت أصيلاً، جلست إلى صخرة أستمتع برذاذ الموج يلاطف خدي، وبقيت ألثم وجهك المورد، وانتظرت لحظة وحي تمكنني من قول شعر غزل فيك، لكنه، ولد الحرام، أبى، فتمنعت الحروف، بقيت أجاهد، وأعتصر ذهني، فلم أتمكن من بلوغ سوى كلمات قليلة، أضعها بين يديك:

عصفورتي!

أعرف

، الآن،

سبب خفقان قلبي

جناحاك في أعماق صدري.

هي كل ما جادت به قريحتي، لكن عشقي لك شديد، وحبي لك عظيم...كاصطخاب موج البحر...

لا تهتمي للندب يخترق خدّي، أخبرك أنه وشم مغامرة بقي يذكرني بعبث الحياة. كنت ذاهباً إلى عملي، واتخذت درباً آخر غير الذي تعوّدت عليه، متبعاً نصيحة وجوب التغيير، فالملل قاتل، وإذا بصوت صراخ يتناهى إلى مسامعي، يطلب النجدة، تحرّكت في النخوة العربية، تتبعت الأثر لأجدني أمام رجل مفتول العضلات يجرُّ فتاة مشرقة إلى مكان مظلم...لم أبخل عليه بالنصح حتى يترك الفتاة لحالها، فأشهر الوغد سيفاً حادًّاً في وجهي ودعاني للاهتمام بشؤوني. لم أتقبل

التهديد، وركبت رأسي، واندفعت باتجاهه حتى أحرر الفتاة من قبضته الشديدة، تمكنت بعد جهد جهيد، لكن الوشم كان جزاء لي، والأمر، هذا الندب الذي خلفه في نفسي يوم وجدتهما بعد ذلك، في حديقة متعانقين.

ما العيب في أن أحبك؟ هل علي أن أقدم لك أدلة تثبت حب أصحاب الخريف للصبايا؟ خذي مثلاً: الرجل الورع، القادر على تحريك الشارع العربي بمجرد فتوى طائشة، وهو الضارب في عمق الشيخوخة، ألم تصب قلبه طلقة عيون تلك الصبية من بلادنا؟ ورجل العالم القوي، انظري إلى تلك الحسناء التي تقف إلى جانبه، وقبله صديقه الذي شاب شعر رأسه ولم تشب فحولته، ألم تصبه لوينسكي بصعقة حب، فترك أثراً على السجاد يدل على شبقه؟ والأمثلة كثيرة، قد سقتها لربما لأقنع نفسي قبلك.

أيتها العاتية صبابة، تمهلي رجاء! ما ضرك لو تبسمت في وجهي، لن يكلفك ذلك شيئاً، اعتبريها صدقة في سبيل الله، لهذا الفقير حباً.. فقد كنت ضالاً فاهتديت حين رأيتك،

لم لا تكونين لي غيثاً يحيي جدب أيامي، يخصب أرضي القاحلة، ويعيد إلي روحي الضالة؟ ما العيب أن أهفو إليك والقلب متعطش لفيض نورك؟ صحيح أني في لحظة انحدار خريفي، وأنت في بداية بزوغ ربيعك، فهل عيب أن أرتشف من منابع نضارتك؟

أنت منارة قلبي بعد ظلمة شديدة ألمت به لسنين... "ماتت" زوجتي، هي التي اقترنت بها بعد أن رفضتني شابة رائعة حين فاتحتها بحبي، وكنت لحظتها في ريعان شبابي، صدتني بجفاء، ونظرت إلي باحتقار، فسجنت قلبي في قفص مظلم، وحكمت عليه بالصمت الأبدي إلى أن تحرك وهو يراك، وما لي عليه من سلطان، هو حر في أن يرفرف، وما بيدي حيلة لأوقف نفسه، وأكتمها.. هو من يدفعني إلى المجيء إلى منزلك لأتفيأ ظلال نافتك حين تشرقين بطلتك البهية...

أذكر أني في تلك اللحظة، لحظة رفضها لي، عدوت صارخاً حتى أتخلص من قوة القهر التي تلبستني، فصادف ذلك مرور مظاهرة منددة بالزيادات ..فاحتوتني، فما كان من الشرطة إلا أن جندت قوتها المجنونة، وأنزلت ضرباتها كنشيد وطني على أجسادنا المتصلبة حسرة. تم اعتقالي، أنا الرجل المسالم، فتحول جسدي إلى كوباي، لاختبار آخر تقليعات التعذيب، لم أبصر النور إلا بعد فترة طويلة قضيتها بين جدران حالكة، شديدة الظلمة، لزنزانة تفوح عطانةً؛ فترة تركت في الجسم والنفس ندوباً... بعد خروجي بقليل، وقد صرت كهلاً؛ وقد استبدَّ بي البياض، وتقوس ظهري قليلاً، وصار بصري كليلاً، أني قررت الزواج بتقليب ألبوم صور فتيات في ريعان الشباب، قدمته لي امرأة فتحت فيما بعد وكالة للزواج، أغمضت عيني، ووضعت إصبعي على إحدى الصورة كما في قرعة الأنبياء، فكان أن تم العرس سريعاً.. والحقّ أنها لم تمت، بل

هجرتني لبرودتي. الآن، أعلم أني كنت السبب، ما كان علي أن أتزوج بهذه الطريقة، هل كنت لحظتها أنتقم من نفسي أم من كل الفتيات بفعل ما تعرضت له من صدّ؟ ما ذنبها في ما جرى لي؟ تباً للحقد، يعمي العيون! أيتها الصبية الحسناء، ألا ترين كيف يغازل القمر الشمس، وقليلاً ما يلتقيان، تجود عليه بضوئها فيحوله نوراً! أنت شمسي التي زرعت في أوردتي ناراً ففار دمي، صار حاراً؛ تدفقت الخيول الجامحة في كل جسمي؛ لهذا يرتفع خفقان قلبي كلما رآك!

عندما أنهيت كتابة القصة، أصبت بحيرة الفراغ؛ ماذا سأصنع بها؟ ينبغي أن أكون صافي الذهن، لذا، توجهت إلى الحمام، أخذت حماماً دافئاً، جففت جسمي، وخرجت عارياً لأجثو على ركبتي، وقد صنعت من القصة سكيناً حادّة، ثم وبكل هدوء محارب الساموراي، غرستها في قلبي، في تلك اللحظة دغدغ رنين الباب أذني، نهضت متثاقلاً، أصبت بذهول كامل الدسم: واقفة بكل شموخ، زوجتي، لم تفقد من جمالها ولا ذرة، تنظر إلي باستعلاء، أخرجتني من ذهولي صفعة حارة لم يسبق أن عرفتها كل قواميس العالم؛ جعلتني كمن سقط في بئر عميقة، وكنت أسمع لعناتها قوية الصدى تلاحقني:

يا لك من وغد سافل!

وتلاحقني صورتك كمناديل ورقية...

ألواح

يقبع في غرفة صغيرة من الإسمنت المسلح ذات حيطان بيضاء صمَّاء، من دون نوافذ، واجهتها الأمامية تطل على ساحة فسيحة، نصبت وسطها مشنقة، وتحيط بها مدرجات غاصة بالمتفرجين، كان يتابع المشهد بعينين قلقتين. فتح الباب حارس غليظ القلب، بارد القسمات، مده بخمسة ألواح، وأخبره: واحدة هي التي تحمل خلاصك، فأحسن الاختيار! كيف يحسن الاختيار؟ هل رفع عنه الحجاب؟! منحسر الجسد في ما يشبه كيس ليمون ينتظر لحظة العصر، أغمض عينيه متسائلاً: لمَ أنا هنا؟ أنا رجل مسالم، أحبُّ السير في الظل، لصق الحائط، ما سبق لي الانتماء لا لحزب سري ولا لحزب علني، ولم أكن عضواً في نقابة، وحتى جمعية حيَّنا لم أقربها بنسب، لا أريد صداعاً مع السلطة. فهل احترام الجيران لي يمكن أن يكون السبب؟ إذاً، يمكنني، لو علمت بذلك، تغيير سكني، والابتعاد عن الناس، ولن أخوض في أحاديث السياسة، وهل خضتها قبلاً؟!أكيد: لا؛ فشعاري الأساس: لا أريد وجع رأس، فتح عينيه، تلمس الألواح بلمسات حانية عساها تبوح له بالسر، قرَّبها من بصره، يريد أن يخترق حجبها ويطالع الرموز، ويكتشف اللوح المخلص، لكنه لا يمتلك أشعة سينية، يقربها من قلبه، فالبصيرة أقوى من البصر، لكن الألواح بقيت صامتة، قلبه يخفق بسرعة، والجبين يتفصد عرقاً، يتنفس بسرعة، يشعر باختلاجات متتابعة في عضلات صدره، دمع حارّ يسلّ على خديه، ينظر إلى الساعة المعلقة أمامه، يراها تسرع، لأول مرة يدرك معنى أن الوقت كالسيف، إنه مسلط على رقبته، يحزها ببطء، عليه أن يسرع، قبل فوات الأوان، والأوان أرنب، يشعر بغضب، أكبر من الغضب الذي شعر به يوم قالت له زوجته: اخرج لجلب علبة الحليب لابننا.. وكانت نفساء، لم ينجبا إلا بصعوبة، وبعد فحوصات واختبارات.. دعي الأمر إلى الغد. أشعر بانقباض صدري، اللهم اجعله خيراً .. كفاك تهرُّباً، اخرج الآن، الطفل بحاجة للحليب.. ولا تتحجج بالخرافات. أرضعيه ما في ثديك من حليب.. تعلم أن صدري لا يتوفر إلا على القليل، وما أشبعه، لقد امتصَّ كل ما فيه، حتى شعرت بالألم.. هيا، اخرج سريعاً. وخرج على مضض، يدمدم بكلمات غير مسموعة، خوفاً من غضبها، وجد الصيدلية القريبة من محل سكناه مغلقة، ولا التي أبعد منها. أخبره أحد المارة بالذهاب إلى صيدلية الساحة العمومية؛ فهي الوحيدة المفتوحة لحدّ الساعة، وعليه أن يسرع قبل أن تغلق ويجتمع الناس. حث الخطو متذمراً، وما إن وصل حتى وجد الساحة غاصَّة بالمتظاهرين، شعر بخوف شديد، وازداد لما قدمت الشرطة بسياراتها المصفحة، وخراطيم مياهها، وهراوات رجالها، فعدا كما عدا الناس، تلمس النجاة، لكن الشرطة حاصرته، واقتادته إلى مخفرها غير عابئة بتوسلاته، فهو، في نظرها، أحد المشاركين في الانقلاب الفاشل، هكذا قيل له. يا للهول! كيف أفسر لهم أني ضحية سوء تقدير وحكم، لم يجد أذناً صاغية، حسم الأمر، وها هو قابع في هذه الغرفة

الصغيرة، يقلب الألواح بقلب راجف، بحثا عن اللوح المخلص، كما لو كان يبحث عن كنز بخريطة ملغزة. يستحضر صورة طفله، يبتسم مبدداً، للحظة، العبوس المقيم، ثم يعود إلى نحيبه. يرى المشهد التالي حيًّاً في مخيلته: ما أن يتم تعليق الحبل في رقبته ويتم فتح البوابة السفلية حتى يسقط جسده متدلياً للأسفل ليتم فوراً كسر حبله الشوكي وحدوث الوفاة فوراً. يشعر بألم يجتاح كيانه كاملاً، أيها الطيّب، يقول في نفسه: لا داعي لجس نبضي، فأنا ميت قبل ولوج هذه الغرفة المنحوسة! كانت يداه ترتجفان، والوقت يسير باتجاه نهايته، وضربات القلب تعلو، وتعلو، والعرق يتصبب منه، وفي الأخير، ولم يبقَ سوى ثانية واحد، وضع إصبعه على لوح واحد، قرأ آية الكرسي قبل اختياره، رفعه إلى أعلى، وألصقه بالزجاجة الأماميَّة، واستدار إلى الحائط ملتصقاً به، كان يرتجف بشدة، ومن قنَّة رأسه يسيل عرقٌ بارد يهبط مع مهوى عموده الفقري، ومن بين رجليه ينبجس ماء دافئ أشعره بوجوه.. مرَّت آلة كهربائية على اللوح، مرسلة أشعة تقرأ رموز اللوح، وتعكسها على شاشة كبيرة وضعت خصيصاً أمام الجميع ليروا النتيجة. استدار ببطء، والقلب في أوج خفقانه، حين سمع صراخ الحاضرين، نظر إلى الشاشة متوسلاً، لم يصدق ما رأته عيناه، فخرَّ مغشياً عليه....

سير

كل صباح أراه يمشي على الماء، فولد في المشهد فضولاً كان لابدَّ لي من إشباعه، إذ كيف يمكن أن يكون ذلك متحققاً وأمام ناظري وتحت أنظار الناس كافة؟ ضروري أن يثير أسئلة بعد التعجب، ضروري أن تتملكنا الرغبة في تعلّم الحيلة، وإلا البيعة ..

ثم، بعد توالي الوقت، اكتشفت أن ما يقوم به ليس من باب رغبته في إظهار ما يمتلكه من معجزات، بل صار روتيناً يومياً، يقوم به من دون متعة ولا نشاط، كلما أراد التوجه إلى مقر عمله، ويزيد عجبنا الشاهد حين يقوم الرجل بقفزات بهلوانية لا تجعله يغرق بتاتاً، إلا في غضبه الذي تتسع رقعته مع توالي الأيام.

المهم، إنه قليلاً ما كان يصل إلى مقر عمله في الوقت المحدد، فقد تكون معجزة السير فوق الماء قد استهلكت طاقته كلها، فتراخى في الذهاب. الأمر الذي كان يجرُّ عليه توبيخ مديره، مما يثير حنقه؛ خاصة وأن هذا الأخير قصير القامة هزيل البناء لكنه يمتلك لساناً سليطاً، وكان بإمكان الرجل أن يحرك يده ليقتلع المدير من الأرض ويطوح به بمجرد ضربة صغيرة إلى السماء، فقد كان طويل القامة، متين البنيان، لكن اللغة تخونه فلا يعرف بما يردّ. وهذا ما كان يزيده في معاناته فيصيرها مضاعفة.

تراه يسير أول مرة فتظن أنه ساحر أو ترجعها إلى كيد ضعف البصر، لكن الحقيقة أنه يسير فوق الماء لا رغبة في الظهور ولا بغاية لفت الانتباه. وتأكيد حضوره في هذا الواقع البائس... يمكن أن ترى ذلك بادياً على وجهه؛ ملامحه تعبر عن الامتعاض والغثيان، فكثرة مزاولة نشاط ما تفقد المرء الرغبة في متابعته، والتجديد ضرورة لا مفرَّ منها، أما الدوران في الحلقة نفسها فيولد التقزز والغضب. وقد لاحظت أن الرجل، وهو يفعل ذلك، يحرك شفتيه، فأحدث ذلك في نفسي عجباً، وهو ما أثار اهتمامي أكثر من المشي فوق الماء، بل حتى من رؤيتي له حين يبلغ الجهة الأخرى القريبة من عمله، حيث ينحني ليغير حذاءه بآخر نظيف، قبل ولوج مؤسسة عمله.

حاولت بشتَّى الطرق أن أعرف بم يحدث نفسه، وتمكنت من ذلك وبصعوبة بالغة كلفتني تعلم لغة الشفاه. ، بهذه الطريقة توصلت لمعرفة ما تضمره نفسه الأمارة بالغضب والثورة على وضعيته الكئيبة، المهم، عرفت أنه يرسل كلمات تشبه دعاء يرمي به أشخاصاً محددين؛ كنوع من السحر حين يتلفظ المرء بكلمات مطلسمة تهدف إلى إلحاق الأذى بالشخص المقصود.

منزله يقع في شارع غير مزفت، أي غير معبَّد، وكلما سقط مطر اهتزَّت أوتار قلبه، ونزلت من فمه دعوات النجاة، ولعنات على من سكَّ الطرق من غير مراعاة معاناة عباد الله.

حدَّثنا قائلاً

انطلقت في هذا الفضاء بمتعة سابحاً، أخترق صمته الفاحش الجمال، وأجرح صفاء تأمله، إنني غير مصدق أني قد انطلقت بحرية لأستمتع بدفء الشمس، وأغتسل بالنور والضياء، إنني لحد الساعة ما زلت متشككاً، هل وقع الانطلاق حقاً؟ تنتابني الشكوك، تريد أن تغتال متعتي اللحظية، ألتفت خلفي، لقد خرجت من كهف الكنانة حقاً، خرجت من ظلمة ذلك الكهف الخانق، إنني أطير كعصفور ألف السباحة في جمال الكون مغرداً، لا أمتلك صوتاً سوى هسيس، بيد أني أشعر بحلاوة ما شعرت بها مطلقاً. كنت أشعر بالاختناق، قبلاً، في ذلك الحيِّز الضيق والمظلم من الكنانة، وازداد ضيقي لكثرة السهام وهي تقتسم معي ما لا يقتسم. اختناق فعلي كاد يطير صوابي ويقتل في رغبة الحياة. أما الآن، فأنا حرٌّ ولو لوقت يسير، لا يهمُّ، أن تشعر بالحرية ولو لمدة وجيزة خير من البقاء معتقلاً طوال حياتك، أنا ابن الشجر العاشق للحرية، والمحتضن لأعشاش الطيور وهي تشدو بالجمال، وتزرع في النفوس ألق الحياة، ما أروعني! أنا الوحيد في هذا الفضاء الرحب، أحس أني قد منحت دون غيري ملكة التحرك والسباحة من دون قيد، أنا ابن الطبيعة قد عدت إليها وها هي تحضنني بشوق ومحبة. خيل لي وأنا أحلق، أن العصافير قد اصطفت على الجانبين لتحية موكبي بالتغريد. شعرت لحظتها بالزهو .

أنظر تحتي فأرى شجرة أرعشتني، سرى في بدني برد غريب هز أعطافي، كأن لي بها ذكرى، بل لي بها علاقة مؤكدة، إنها أمي التي ولدتني، وأنا أحد أغصانها التي اغتصبتها يد شرسة لا تحب الحياة، أعلم أن شره الإنسان للمال يدفع به إلى الانتحار، يقطع الأشجار، ويغتصب الغابات، غير مبال بالأخطار الناجمة عن فعله، إنه يصحّر الحياة، يرتكب جناية في حقه والأجيال القادمة. أتذكر جيداً أن تلك الشجرة قد احتضنت قصة عشق جارف بين شاب من أسرة متوسطة الحال، وفتاة غنية سقطت في غرامه، فتواعدا على ألا يفترقا، وأن الكلمة الفصل لحبهما ستكون بيديهما، وأن الموت هو القادر على إنهاء حكايتهما وإلى الأبد، إذا قتل أحدهما أو مات فإن الثاني سيلحق به تواً، ولن يترك فرصة الشماتة تزين محيا العذل.

أتذكر جيداً تلك الأيام التي «جمعتهما تحت ظلال وارفة من الشّغف، وسارت بهما ردحًا من الزّمن في فلاةِ اللهفة على هودج الجنون

نظرت إلى حضورهما العطر، وكنت صبياً لا أفقه في أمور الحب، لكنني كنت أنتشي بحضورهما، وأطرب لكلماتهما الرقيقة

كالنسائم، وبوحهما العذب كخرير ماء نهر يعد بالخصب، تلك اللمسات البريئة والحنون كانت تبعث في جسمي قشعريرة، وكان حدسي يخبرني أنهما في خطر. يشدني الحنين إليك، وأفكر كيف سأعانقك؟!

اليد الخبيثة التي صهل فأسها في جذعك لم تفلح في قتلك، ها أنت تنمين بيناعة وقوة نشاط، وأنا المجتث منك أطلب ارتواء من صدرك، لكنني لا أستطيع، لقد حرفت عن مساري، وصرت غيري، وأعرف أني قد أصبحت سهماً عارياً مني، آه، ثم آه، أدرك غايتي، وأعرف جيداً هدفي، إنني صرت آلة قتل. أنظر إلى جذعك فترشقني عبارة الوله المكتوبة بأظافر العشق، وذلك القلب المدمى، لم ينزف، فقد ظل صامداً، يكتم حبه ولا يطيق أن يرى انهراق دمه. وأنا في انطلاقي، رصدت وجهاً، أعرفه جيداً، لقد نحت بقوة في ذاكرتي، أعرف صاحبه... ها أنا أدرك، اللحظة، هدف انطلاقي، إنني أهوي شيئاً فشيئاً، أسير باتجاه القلب النابض لأسكته، أبداً لن أفعل، سأتمرَّد على هذا الدور المسرحي الباهت، لن أكون أداة سفك دمٍ زكي، أنظر إلى عينيه فأرى فيها ألق الشوق، أريد أن أسقط أرضاً على أن أمرغ التربة بدم الكراهية، سأترك للفتى متَّسع حياة. لكن، مهلاً، أرى خلفي سهماً من لبلاب يزيحني، ثم يخترق بدقة شغاف القلب، ولحظة سقوطي كمدا، قرع صوتي صراخ مفزع كسر جلال السماء. وأنا مشجّى على الأرض سقطت على خدي دموع حمراء.

المركبة

انتظر إلى أن امتلأت الحافلة عن آخرها، وما عاد متسع للمزيد، حتى صارت كالحامل على وشك الوضع، وانطلق ذاكراً الله أن ترافقه السلامة، فأرواح الناس ميثاق غليظ. سارت على هدي من الله تتمايل ببطء تشكو إلى الباري أمرها وأمره، في نوع من التضامن بينهما قلَّ نظيره؛ خيط نور يربط بين روحيهما. كان يعلم أنها لم تخلق، أقصد: لم تصنع لتحمل هذا الثقل الزائد، وأن تقطع المسافات الطوال، متحدية العقبات؛ فقد صنعت ليركبها قلة من الناس، وتسير في أرض منبسطة، لا تكبدها إرهاقاً، ولا تحمل عليها إصراً، ولا تحملها ما لا طاقة لها به.

وكان السائق مضطراً لتكديس الناس، متحملاً ضجيجهم، وروائحهم المختلفة والنفاذة، وصراخ أبنائهم، حفاظاً على عمله، ولكي يعود بدخل محترم يرضي أصحاب الشركة. صحيح أنه كان يغلي كالمرجل، لكن حكمته جعلت الفتيل بعيداً عن أعواد الثقاب؛ فالتحمُّل والصبر من شيم الكرماء.

كان كلما انتهى من عمله عاد إلى منزله مسروراً، يأخذ حماماً دافئاً، يتناول قليلاً من الطعام ويتحدث مع زوجته قليلاً قبل أن يخلد إلى النوم؛ وإن كان العمل متعباً نام سريعاً دون أن يأكل شيئاً؛ فالإرهاق يأخذ منه مأخذاً؛ وقد تعودت زوجته على هذا الأمر، وتحمد الله على عودته سالماً، لا تطلب سوى أن يكون إلى جانبها ولو نائماً. لا تستفرد به إلا أيام العطل، وهي قليلة، أو يوم الأحد، إذ يتوجهان إلى مقهى، أو إلى مطعم، وإذا كان المزاج رائقاً، توجها إلى السينما لمشاهدة فيلم فكاهي، يزيل غبار التعب، وينشط الدورة الدموية، ويساعد على المتع الرومانسية.

"متى ستنجبان؟

لا أعرف..

هل تفكران في الإنجاب؟

لا أعرف

"لا داعي للاستعجال"...

تخرج زوجته كل يوم لشراء ما يلزم، لكنها اليوم، خرجت لشراء حلوى بمناسبة عيد ميلاد زوجها، تسعى من خلال فعلها إلى إدخال البهجة على قلبه، وتعبر عن تضامنها معه، فمثل هذا السلوك يقويه ويمنع عنه الإحساس بالغبن.

يقود الحافلة بحرص شديد، رغم مطبات الطريق، ورغم الازدحام، وكثرة اللغط، والسبّ القادم من أفواه تعودت التحرش بالناس، يتحمل احتكاكاتهم الجسدية، حتى إنه يظن في قرارة نفسه، أنه لا يقود حافلة بل يقود ماخوراً... لا يهمّ، كل ما يعنيه أن يصل بحمولته إلى مقاصدها المعلومة دون أن يتأذى أحد. الناس تجتاز الشارع في غير انتظام، فعليه أن يكون في كامل انتباهه حتى لا يصطدم مع أحد، كيفما كان نوع الاصطدام.

"متى عيد ميلادك سيدي؟

لا أعرف. لم يسبق لي الاحتفال به، ثم إنه أمر لا يعنيني.

طيب، لا تشتت انتباهك، تابع طريقك مرافقاً بالسلامة"...

وهو في الطريق شاهد امرأة مشتبكة مع رجل يريد أن يسلبها حقيبتها بالقوة، في هذا المكان الخالي. اضطرب قلبه، تكاد تشبه زوجته في لون جلبابها، ولون شعرها، وقامتها، بل هي زوجته...ركن الحافلة جانباً، ضغط على الفرامل بقوة الغضب الذي يسكنه، حتى ارتج الركاب، وكأنهم لبن في قربة، ونزل سريعاً يريد إنقاذها، رآه اللص قادماً، يتطاير الشرر من عينيه ؛ علم أن لا قدرة له على مواجهة هذا الرجل الربعة مفتول العضلات فتحفز للمواجهة، ولما اقترب منه كثيراً، استخرج من حزامه سكيناً كبيرة وعالجه بها بضربة في البطن ثم في النحر سقط على إثرها أرضاً يسبح في دمه، وحين شاهدت الزوجة زوجها مضرجا في دمه، سقطت إلى جانبه مغشياً عليها، أخذ اللص الحقيبة وذاب في الخلاء. كان ركاب الحافلة مسلوبي الإرادة، لم يصدقوا ما رأوا.

مر وقت قبل أن تحضر سيارة الإسعاف الشرطة. كان الضحية لحظتها قد فارق الحياة، والزوجة مازالت فاقدة لوعيها، أما الحافلة فكانت خاوية على عروشها، كانت فارغة تماماً.

هلوسات بلبل سرق صوته

ألتهم الوقت أو يلتهمني، سيان المهم عندي متابعة عطر النساء، هذه الكائنات الرقيقة والعذبة كفراشات، شرائح لحم مختلفة المذاقات، ما أعذبهن! يكفيني أنا القابع بهذه المقهى الوضيعة، أن أجلس على كرسي من القشّ، وأمامي طاولة شحب لونها على ظهرها فنجان قهوتي، ومرمدة من زجاج تحمل علامة ماركة عالمية، عليها سيجارتي، وقربهما جريدتي الصباحية مطوية بعناية لا تظهر سوى صفحة الكلمات المتقاطعة فارغة المربعات. بعد نفثة وقضمة ورشفة كانت الكلمات تنثال إلى أن امتلأت شبكتي وفاض ماؤها، فحملني إلى أرض جرداء إلا من شجيرات مثمرة، ونبع ماء. سرعان ما تأقلمت مع المكان، فبنيت لي زاوية أحاطت بالشجيرات والنبع. كانت رياضتي الصلاة والصبر عليها. لم يمض وقت حتى وجدت القوافل تحط بجواري، في البداية كانت قليلة وعلى فترات من الزمن، ثم تكاثرت. من على صومعتي شاهدت بنايات تقام، وملاه ومقاه. فكانت مدينة الراشقاني.

حلقت لحيتي التي طالت حتى الصدر، واستحممت، وتعطّرت، ولبست ثيابي، ثم توجهت إلى تلك المقهى الوضيعة، جلست على كرسي من قش، وعلى طاولتي الحالكة وضع النادل جريدتي الصباحية ومرمدة زجاجية تحمل علامة ماركة تجارية عالمية، أشعلت سيجارتي، وبدأت أتأمل نافثاً في وجه العالم دخاني؛ لم يعد يروق لي، أفكر في إعادة بنائه، لكن، هذه المرة، على شكل امرأة.

بلقيس

حبيبتي البرونزية غاضبة مني وعلي، قالت لي: إنني انتظرتك طويلاً على أحرّ من الجمر.

نسيت أنها طلبت مني هدية لم يسبق أن نالتها واحدة قبلها، ولن تنالها واحدة بعدها. هي من سلالة المحاربات، دمها ملكي، ولا يطلبها إلا المغامرون الأفذاذ. بقيت حائراً لفترة في أمر الطلب، ثم عزمت وتوكلت على الله، وضربت في مناكب الأرض باحثاً ومغامراً، كانت رغبتي في أن أحصل على شيء نادر، شيء واحد لا يوجد له مثيل، فحبيبتي البرونزية قد سلبت لبي وقلبي، وتركتني فارغا إلا منها، وإن لم أعثر على المميز، فسأسقط في الفراغ النهائي، وموتي، حينذاك، سيكون خير نهاية، علي أن أفكر في نهاية مأساوية تليق برجل شهم وعاشق، لن يجود الزمن بمثله أبداً. هذا إن لم أعثر على ما أريد وأبغي، ويكون ذا قوة وتأثير على حبيبتي. لن أذخر وسعاً في سبيل العثور عليه، فحبيبتي البرونزية أنثى فريدة، فلتة من الطبيعة، جاءتني على أكف الرغبة، وعلي أن أطفئ نار اللوعة بتقديم الهدية السنية لها. حبيبتي البرونزية جنتي المشتهاة، ثمارها ناضجة، دانية القطوف، رهن إشارتي أناملي للقطف وتحقيق الإشباع الحسي والمعنوي. رائحتها من عبير الجنة، تسكن أحلامي، تسكن وجداني، تسكن عقلي، وهيهات هيهات أن أتكاسل في البحث، وإلا، فعلي أن أكون شبيها بالساموراي.

قضيت زمناً طويلاً، قطعت فيافي وبحاراً، وواجهت غيلاناً، وأبطالاً شجعان، وآخرين يملأ قلوبهم البغض والحسد، صادفت من ملأ قلبي اخضراراً، ومن حمل في يديه المتعرقتين منجل يأس، في الأفق، بدا لي رجل خلته من الكائنات النورانية، جاءت لتضعني على سكة الصواب، تسهل علي بلوغ الأرب، لكنه كان شيطاناً مريداً، ذا لحية شعثاء، وعينين تقدحان شرراً، وفي قلبه سواد وظلمة، سعى إلى تضليلي، وفرض وصايته علي، بإرشادي إلى حيث ضياعي، لكنني اكتشفت لعبته الماكرة، فهزمته بالتجاهل، وسرت وراء خفق قلبي، ومن مشى خلف بصيرته لن يضل أبداً.

وكدت أيأس، ولا ييأس من الحب إلا الغافلون التائهون، المبعدون، الضالون، الكارهون، أصحاب النفوس المظلمة، والنفوس المظلمة لا يسكنها الحب، لان الحب نور، والنور لا يأتي إلا من النفوس الطاهرة، ولا يكون قادماً إلا من الأصفياء، هم نجوم السماء، وكواكبها، وحبيبتي كاعب حسناء، وأنا المتيَّمُ بها. عدت، وفي يدي الأمل، وفي يدي النور، وفي يدي الادر، وفي يد المبهر، لا يحصل عليه إلا من أخلص وكان نقياً سامياً.

ماذا حملت لي؟

حملت لك ما لا يحمل إلا لك، حملت لك عرش بلقيس، وتوجتك على قلبي سلطانته الوحيدة.

سرت بالهدية، فمنحتني قلبها وجسدها، وقالت لي: هيت لك.

قشابة

لبست قشابتي البيضاء لتخفي ملابسي الداخلية الفضفاضة التي تخفي سلاحي، وخرجت متوكئاً على عصاي متوجهاً إلى المسجد قبل أذان الظهر، بعد أن توضأت؛ وقد حرصت على أن لا تشوب طهارتي شائبة، لذا، توضأت أكثر من مرة لأقطع الشك باليقين، وحتى لا يأتيني الريب وأنا أصلي؛ ليس ذلك دليل هوس، أو انشغال مرضي بالتطهر، بل هو حرص مني على الوقوف أمام الرب نقي الروح والثياب. ثم ان ذاكرتي مخرومة، تتلاعب بي أحياناً، فتوهمني بأشياء وقعت لي وما وقعت البتة، وحرصاً مني على ألا أكون لها ضحية، أتعمد التكرار ليترسخ اليقين. سرت بتؤدة والشمس عمودية تسلط أشعتها الحارة على قنة رأسي، فتجعل دماغي يغلي، وحين وصلت، جلست على عتبة المسجد في انتظار المؤذن. لحظتها رأيت شاباً يعانق شابَّة فيما يشبه الانصهار، كطائرين فوق فنن راقص. أصبت بغيرة حادة منه، وتخيلتني أزحزحه عن موضعه، وأجلس مكانه، أمسك بيدي الحسناء برقة، وأكلمها شعراً عذباً يذيب القلب؛ فأنا أمتلك موهبة القول، لكن الفتيات ما امتلكن رفعة الإنصات، فتعذبت كثيراً، فما وجدت قبولاً لدى أي واحدة، رغم أني لست دميماً، بل مليحاً كنتُ. سأسمعها أعذب ما يتغنى به من حب، سأكتب لها أجمل الكلمات، لكنني عدت إلى رشدي، فأنا شيخ بلغ السبعينيات، وليس من حقي التصابي

أدمنت وأنا شاب، مفعم بالحيوية، متفجر الطاقة، الجلوس بمحطة القطار، أنتظر القادمين، وحين أبصر فتاة مبتسمة تسير باتجاهي، أنهض بتلقائية، وأفتح ذراعي بعفوية، تخترقني وتمضي، غير عابئة بدمع القلب، أنظر إلى الخلف لأجدها محلقة بفرحة لقاء حبيبها، تعانقه بحرارة، ويتبادلان القبل. بعد أن راكمت ما يكفي من مرارة.

قررت، مرة، أن أكون وقحاً، وسافلاً، ومنحطاً، فنفسي الخائبة صارت كسكينة من الحقد ماضية:

اتجهت صوب محطة الحافلات، فقد ألتقي بشابة ضالة كما حصل لأمثالي؛ فقد حكى لي أصدقائي عن مغامراتهم انطلاقاً من هذا المكان، يستفردون بالفتيات الهاربات من منازلهن لسبب ما؛ فاقتنعت، وآمنت به مخيلتي.

تحقق مرادي لما أبصرت فتاة وقت الغروب ترتدي جلباباً سماوياً، وتضع منديلاً على رأسها، تنزل من الحافلة بقدمين مترددتين، وبنظرات زائغة، أخبرني قلبي أنها وحيدة وغريبة عن المدينة، دنوت منها بُخطى واثقة، ومددت لها يد المساعدة بابتسامة ماكرة، لم أكن ماكراً، ولا أظن نفسي ماكراً، لكن الظروف تصنع من المحروم ذئباً:

هل تعرف هذا العنوان؟

بالطبع، وقدتها باتجاه مكان خال؛ ربما غابة الشباب، ربما جانب حائط متهدم من حيطان صهريج السواني، وربما في مكان آخر، لا أتذكر؛ كثيراً ما يحدث لي حتى أظنني واهماً. توسلت إلى أن أرحمها؛ وهي التي فرَّت من قسوة أهلها عليها، ولمَّا بكت، صارت دموعها مقص ختان للرغبة، قلت لها:

البسي ثيابك

ولبست نبلي.

ناديت سيارة أجرة، وطلبت من سائقها أن يتوجه بها إلى العنوان الذي بيدها. ركبت غير مصدقة لتسارع الأحداث. بشكل عجيب، وغير منتظر. ترجلت، وقبلتني بحرارة، أمام أنظار السائق المستغربة، نفذت الحرارة إلى داخلي، رجتني رجا، وبللتني. وقبل أن تنطلق السيارة، خفضت زجاج النافذة، وأطلت برأسها، قائلة:

سألتقيك!

لا تعرف اسمي، ولا أعرف اسمها، ولست متيقناً مما جرى، وما تواعدنا، فكيف سنلتقي؟

لن أصرخ في وجههما: اللهم إن هذا منكر، لأخفي كبتي وحرماني، بإمطار العاشقين بوابل من سخط سكن الفؤاد جراء قحولة القلب من رواء الحب، لن أقف فوق المنبر، مثل هذا الخطيب الذي تحدَّث صارخاً واللعاب يتطاير من فمه الأدرد: القيم في خطر، واللعنات تصب علينا جمَّاً، ها أنتم ترون أن المطر قد حبس عنا، وأن الخير قد فارقنا، وما كل هذا إلا بفعل خروج المرأة سافرة، إنها أس البلاء ومصدر البلية...

سأقول عند كل سجدة: اللهم اسق قلوب عبادك بالحب.

"نُشِر هذا الكتاب إلكترونيًّاً على منصَّة Rê الثقافيَّة بالاتِّفاق مع المؤلِّف"

حقوق النشر محفوظة Rê 2019

http://re-platform.com

المحتوى

لولو 2

قبور حائرة 5

فولاذ 8

مقت 12

ولولة 14

الكلمة 17

حصار 20

دوائر القلق 23

طز 27

ندوب 30

ألواح 34

سير 37

حدَّثنا قائلاً 40

المركبة 43

هلوسات بلبل سرق صوته 46

بلقيس 48

قشابة 51

عبد الرحيم التدلاوي

قاص من مكناس المغربية، يهتم بالسرد قراءة وكتابة، له مجموعة من الأعمال الورقية في القصة القصيرة جداً والقصيرة، منها، في القصة القصيرة جداً: "وجوه مشروخة"، و "الطيور لا تنظر خلفها حين تحلق"، و "مفترق طرق"، و "تداعيات الدموع والبياض"، و "شفاه الورد"، و "رنين الانكسار".

و في القصة القصيرة: "أنامل الربيع"، و "صدى السراب"، و "قلت لي".

كما له أربع مجموعات شعرية إلكترونية منشورة على الشبكة العنكبوتية.